العرفان والعارف بحسب ابن سينا

قال الشيخ الرئيس في الاشارت والتنبيهات ،

المعرض عن متاع الدنيا وطيباتها يخص باسم الزاهد والمواظب على فعل العبادات من القيام والصيام ونحوهما يخص باسم العابد والمتصرف بفكره إلى قدس الجبروت مستديما لشروق نور الحق في سره يخص اسم العارف. وقد يتركب بعض هذه مع بعض.

شرح الطوسي، طالب الشيء يبتدىء بإعراض عما يعتقد أنه يبعد عن المطلوب ثم بإقبال على ما يعتقد أنه يقرب إليه وينتهي عند وجدان المطلوب. فطالب الحق يلزمه في الابتداء أن يعرض عما سوى الحق لاسيما ما يشغله عن الطلب أعني متاع الدنيا وطيباتها ثم يقبل على ما يعتقد أنه يقربه من الحق وهو عند الجمهور أفعال مخصوصة هي العبادات. ثم إنه إذا وجد الحق فأول درجات وجدانه هي المعرفة. فإذن أحوال طلاب الحق هي هذه الثلاثة. ولذلك ابتدء الشيخ بتعريفها. ثم إن هذه الأحوال قد توجد في الأشخاص على سبيل الانفراد وقد توجد على سبيل الاجتماع وذلك بحسب اختلاف الأغراض. والاجتماعات الثنائية تكون ثلاثة والثلاثية واحدا. وإلى ذلك أشار الشيخ بقوله وقد يتركب بعض هذه مع بعض.

وقد عرف أهل الاختصاص (القيصري) العرفان بأنه ، العلم بالله سبحانه من حيث اسمائه وصفاته ومظاهره وأحوال المبدأ والمعاد وبحقائق العالم وبكيفية رجوعها الى حقيقة واحدة هي الذات الأحدية. ومعرفة طريق السلوك والمجاهدة لتخليص النفس من مضائق القيود الجزئية واتصالها الى مبدئها واتصافها بنعت الاطلاق والكلية. وقد تناول هذا التعريف في قسمه الأول (العرفان النظري) وفي قسمه الثاني (العرفان العملي). والاول

الزهد عند غير العارف معاملة ما كأنه يشتري بمتاع الدنيا متاع الآخرة. وعند العارف تنزه عما يشغل سره عن الحق وتكبر على كل شيء غير الحق. والعبادة عند غير العارف معاملة ما كأنه يعمل في الدنيا لأجرة يأخذها في الآخرة هي الأجر والثواب وعند العارف رياضة ما لهممه وقوى نفسه المتوهمة والمتخيلة ليجرها بالتعويد عن جناب الغرور إلى جناب الحق فتصير مسالمة للسر الباطن حينما يستجلي الحق لا ينازعه فيخلص السر إلى الشروق الساطع ويصير ذلك ملكة مستقرة كلما شاء السر أطلع إلى نور الحق غير مزاحم من الهمم بل مع تشييع منها له فيكون بكليته منخرطا في تلك القدس .

شرح الطوسي، لما أشار إلى وجود التركيب بين الأحوال الثلاثة أراد أن ينبه على غرض العارف وغير العارف من الزهد والعبادة ليتمايز الفعلان بحسبه. فذكر أن الزهد والعبادة من غير العارف معاملتان فإن الزاهد غير العارف يجري مجرى تاجر يشتري متاعا بمتاع والعابد غير العارف يجري مجرى أجير يعمل عملا لأخذ أجرة فالفعلان مختلفان. لكن الغرض واحد. وأما العارف فزهده في الحالة التي يكون فيها متوجها إلى الحق معرضا عما سواه تنزه عما يشتغله عن الحق إيثارا لما قصده وفي الحالة التي يكون فيها ملتفتا من الحق إلى سواه تكبر على كل شيء غير الحق استحقارا لما دونه. وأما عبادته فارتياض لهممه التي هي مبادىء إرادته وعزماته الشهوانية والغضبية وغيرهما ولقوى نفسية الخيالية والوهمية ليجرها جميعا عن الميل إلى العالم الجسماني والاشتغال به إلى العالم العقلي مشيعة إياه عند توجهه إلى ذلك العالم ولتصير تلك القوى معودة لذلك التشييع فلا تنازع

العقل ولا تزاحم السر حالة المشاهدة فيخلص العقل إلى ذلك العالم ويكون جميع ما تحته من الفروع والقوى منخرطة معه في سلك التوجه إلى ذلك الجانب.

العارف يريد الحق الأول لا لشيء غيره ولا يؤثر شيئا على عرفانه، وتعبده له فقط لأنه مستحق للعبادة ولأنها نسبة شريفة إليه لا لرغبة أو رهبة. وإن كانتا فيكون المرغوب فيه أو المرهوب عنه هو الداعي وفيه المطلوب ويكون الحق ليس الغاية بل الواسطة إلى شيء غيره هو الغاية وهو المطلوب دونه.

شرح الطوسي، لما ذكر غرض العارف وغير العارف من الزهد والعبادة وأثبت مبادىء غرض غيره أعني الثواب والعقاب أشار في هذا الفصل إلى غرض العارف فيما يقصده. فنقول، لعارف الكمال الحقيقي حالتان بالقياس إليه إحديهما لنفسه خاصة وهي محبته الكمال والثانية لنفسه وبدنه جميعا وهي حركته في طلب القربة إليه. والشيخ (ابن سينا) عبر عن الأول بالإرادة وعن الثاني بالتعبد وذكر، أن إرادة العارف وتعبده يتعلقان بالحق الأول جل ذكره لذاته ولا يتعلقان بغيره لذات ذلك الغير بل إن تعلقا بغير الحق تعلقا لأجل الحق أيضا فقوله، العارف يريد الحق الأول لا لشيء غيره بيان لتعلق إراداته بالحق لذاته. وقوله ولا يؤثر شيئا على عرفانه أي لا يؤثر شيئا غير الحق على عرفانه. فإن الحق مؤثر على عرفانه لأن العرفان ليس بمؤثر لذاته عند العارف على ما صرح به فيما يجيء وهو قوله (من آثر العرفان للعرفان فقد قال بالثاني) وكل ما هو مؤثر وليس بمؤثر لذاته فهو مؤثر لا محالة لغيره. فالعرفان مؤثر لغيره وذلك الغير هو الحق لا غير. فإذن الحق مؤثر على العرفان. وإنما اختص العارف بأنه لا يؤثر شيئا غير الحق على عرفانه لأن غير العارف يؤثر نيل الثواب والاحتراز عن العقاب على العرفان لأنه يريد العرفان لأجلهما. أما العارف فلا يؤثر شيئا عليه إلا الحق الذي هو فقط مؤثر لذاته بالقياس إليه. وقوله، وتعبده له فقط إشارة إلى تعلق عبادة العارف أيضا بالحق فقط. فإن قيل، هذا يناقض ما ذكره فيما مر وهو أن عبادة العارف رياضة لقواه ليجرها إلى جناب الحق وهو غيره، فإن جر القوى إلى جناب الحق ليس هو الحق ذاته. قلنا، مراده ليس أن العارف لا يقصد في تعبده غير الحق مطلقا بل هو أن العارف لا يقصد غير الحق بالذات. إنما يقصد الحق بالذات ويقصد إن قصد غيره بالعرض ولأجل الحق كما مر.

وقال ابن سينا، العارف هش بش بسام يبجل الصغير من تواضعه كما يبجل الكبير وينبسط من الخامل مثل ما ينبسط من النبيه وكيف لا يهش وهو فرحان بالحق وبكل شيء فإنه يرى فيه الحق وكيف لا يستوي والجميع عنده سواسية أهل الرحمة قد شغلوا بالباطل.

شرح الطوسي، هذا بيان أخلاق العارفين وأحوالهم. يقال، رجل هش بش، أي طلق الوجه طيب وبسام، أي كثير التبسم. والنبيه، المشهور ويقابله الخامل. وسواسية على وزن ثمانية، أي أشباه. وهي قريبة الاشتقاق من لفظة سواء وزنه فعافلة أو ما يشبهها وليست على قياس. ومعنى الفصل ظاهر. وهذان الوصفان أعني الهشاشة العامة وتسوية الخلق في النظر أثران لخلق واحد يسمى بالرضاء وهو خلق لا يبقى لصاحبه إنكار على شيء ولا خوف من هجوم شيء ولا حزن على فوات شيء.